الباب الثالث

شوقي الإنسان في مواكبته الأحداث الكبرى

كانت نفس شوقي العظيمة ، بعيدة مدى الإحساس بكل ما يقع في العالم في عصره من أحداث تتأثر بها هذه النفس الشفيفة الحساسة ، التي كانت كالرادار ، ينطبع على صفحتها كل أثر لحادث ، وكل عاقبة لحدث طبيعي أو من فعل البشر في أي مكان في عالمه ، فهو كما سبق وقدمنا ، شاعر مصر والعرب والإسلام والإنسانية والعالم عندما تحل بموقع فيه مصيبة أو انقلاب على قديم ، تنكب الجادة السوية ، إلى جديد ينشد الصلاح والإصلاح ، بعد أن يكون قد درس بدقة المؤرخ الصادق ، والحكيم المتأمل ، والشاعر الذي تصفو نفسه صفاء تبدو على صفحته كل مؤثرات ، قد لا يتأثر بها غيره ، أو يمر بها كحدث لا دلالة له ، إذ لا عاقبة تتلوه .

وكان بوصفه شاعرًا نصب نفسه لتأريخ الأحدث العظام ، فإنه كان يرجع إلى ماضي العصور ويقرأ تاريخها وما يكون قد تركه على أهل ذلك العصر من قيم ، وما يكون قد بلغه من عظمة ظلت حيناً من الدهر ، حتى لحقتها طبيعة الأشياء ، من رفعة إلى خفض ، وهو ما كان يؤمن به العالم المحقق المؤرخ

(أرنولد توينبى) الذى أورد تاريخ إمبراطوريات عظيمة لعبت دورها وبثت عقائدها فيما حولها ، واتسعت رقعتها اتساعاً كان فى رأيه هو المؤذن بزوالها . ويضرب فى ذلك أمثالا بإمبراطورية الفرس والرومان وإمبراطورية آل عثمان والإمبراطورية البريطانية ومثلها الفرنسية ، وما كان من شأن البيئة وتنبه الأفكار وفعل الأحداث وتلاشى القدرة على الصمود مثلما يصنع امتداد العمر بالأجساد وتعرضها لأمراض الشيخوخة .

ذلك ما كان من أمر شوقى فى تبصره لصفحات التاريخ ، وارتقابه لما يجرى أو يقع من أحداث .

ونحن عندما نقف عند قصيدة (كبار الحوادث فى وادى النيل) يتحقق لنا ما عنيناه مما سلفت الإشارة إليه . فهو كإنسان رقت مشاعره حتى استوعبت من فرط حساسيتها تاريخاً منذ عهد ما قبل رمسيس ثم عهد الفراعنة ثم الفرس والروم واليونان والترك والجركس ثم العرب الذين استقروا بمصر وأعلوا شأنها حتى صارت كعبة العلم والحضارة .

يقول فى عصر سابق لعصر رمسيس :

ما الذى داخل الليالى منا ... فى صبانا ولليالى دهاء
فعلا الدهر فوق علياء فرعـ ... ـون وهمت بملكه الأرزاء
أعلنت أمرها الذئاب وكانوا ... فى ثياب الرعاة من قبل جاءوا
وإذا مصر شاة خير لراعى السـ ... ـوء تُؤذَى فى نسلها وتساء

وكأنما كان يعز عليه برغم ما بين عصره والعصر الذى كان يوغل فى الكشف

عن سوءاته ، أن يرى مصر فى مثل هذا الظلام أيام ضعف بعض الأسر الفرعونية التى استأسد عليها ضعاف ممن حولها وسلبوا منها عزمها فراح يهتف كأنما قد لسعته نار موقدة :

لبثت مصر فى الظلام إلى أن ... قيل مات الصباح والأضواء
لم يكن ذاك من عمى كل عين ... حجب الليل ضوءها عمياء
ما تراها دعا الوفاء بنيها ... وأتاهم من القبور النداء
وأتى الدهر تائباً بعظيم ... من عظيم آباؤه عظماء
مَنْ كرمسيس فى الملوك حديثاً ... ولرمسيس الملوك فداء

إلى أن يقول :

جل رمسيس فطرة وتعالى ... شيمة أن يقوده السفهاء
وسما للعلا فنال مكاناً ... لم ينله الأمثال والنظراء
وجيوش ينهضن بالأرض ملكاً ... ولواء من تحته الأحياء
ووجود يساس والقول فيه ... ما يقول القضاة والحكماء
وبناء إلى بناء يود الخلـ ... ـد لو نال عمره والبقاء
وعلوم تحيى البلاد و (بتا ... هور) فخر البلاد والشعراء
هكذا الدهر حالة ثم ضد ... ما لحال من الزمان بقاء

* * *

هذه الصور المتحركة المتلألئة بفيض من جواهر السؤدد والمجد فى عصر رمسيس بمصر ، ترينا كيف أن شوقى قد أوغل فى التاريخ القديم والحديث حتى

لكأنه متخصص فيه موكل به معتمد عليه .

وبنفس تحس العلياء وبحس إنسانى رقيق المظهر ، قوى المخبر ، جهير الصوت ، راح يصف ما نالته مصر فى عهد رمسيس من عز ومتعة وبناء تمنى الدهر لو نال بعض عمره وخلوده ..

ولم ينس أن يأتى على ذكر شاعر مصر (بنتاهور) الذى كان فخراً تعتز به مصر ، عرفاناً بفضله فى الإشادة بعظمتها وجلال مقامها بين الأمم .

ثم يأتى على ما كان من أمر الفرس ثم الإسكندر الأكبر المقدونى الذى قضى على حكم الفرس فى مصر وأنشأ مدينة الإسكندرية عندما افتتح مصر عام ٣٣٢ قبل الميلاد .

وتلا ذلك ما كان من أمر روما وقيصرها أنطونيوس وما كان من هيامه بكليوباترا هياماً حمل أوكتافيوس على غزو مصر وانتحارها بعد أن فشلت فى إغوائه ، ثم ما كان من انتحار أنطونيوس ، حبيبها الأول .

هذا القصص الشعرى الملىء بالمواقف التى تفيض بالحكمة ، وتتغنى بالعظمة وتأسى على من خذله حظه وتخلى عنه زمانه ، كلها تنبع من نفس ، إن لم تكن فياضة بالحب والإنسانية والحكمة واكتمال الرؤية لبصره وبصيرته ، لما جاءت بمثل هذه القدرة والغنى والثراء الفنى فى اللفظ والمعنى ، وفى النصح والتثريب ، وفى العبرة والتغنى بالمجد وما يتطلبه من علو همة ، وبعد شأو ، وجهد جهيد حتى تتحقق لطالبه بغيته ومتمناه .

وعندما وقعت مصر مشروع ٢٨ فبراير ، وكانت أغلبية المثقفين غير راضية عنه لأنه لم يحقق آمال الوطنيين ، أنشد قصيدة جاء فيها :

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا وفاز بالحق من لم يأله طلبا
وما قضت مصر من كل لبانتها حتى تجر ذيول الغبطة القشبا
لا تثبت العين شيئاً أو تحققه إذا تحير فيها الدمع واضطربا

كناية إلى أن المشروع لم يكن واضح المعالم ، محققاً للمطالب ، ثم يمضى ليقول :

والصبح يظلم فى عينيك ناصعه إذا سدلت عليه الشك والريبا
إذا طلبت عظيماً فاصبرن له أو فاحشدن رماح الخط والقضبا
إن الرجال إذا ما ألجئوا لجأوا إلى التعاون فيما جل أو حزنا

وهنا كان ينظر إلى اختلاف الآراء حول المشروع فقام يدعو إلى الاعتصام بالتعاون والقضاء على التفكك والتحزب والانقسام .

ويأخذه الإعجاب برسالة الهلال والصليب الأحمرين ، وتترقرق فى شعره فيهما أمارات الإنسانية بما حملت من رحمة وعناية ورعاية نظم يقول :

(جبريل) أنت هدى السـ ـماء وأنت برهان العناية
ابسط جناحيك اللذين هـ ـما الطهارة والهداية
وزد (الهلال) من الكرامة و (الصليب) من الرعاية
فهما لربك رايـة والحرب للشيطان راية
لم يخلق الرحمٰن أكبر منهما فى البر آية
الأحمران من الدم الغا لى وحرمته كناية

الغاديان لنجدة الرائحان إلى وقاية

إن رهافة حس شوقى شرعت بيانها لتشيد بجهود المتطوعات والمتطوعين من الجمعيتين لإدراك أنبل غاية لجريح يتأوه أو يوشك على النهاية يلتمس الرعاية أو مصاب فى حرب أو فى سلم ، فإن جهود الجمعيتين لا حدود لها ، وإنما هما للجريح والمريض والعانى بلسم ويد ممدودة لإسعاف كل من شفه ألم أو ألم به عناء . . . هذه لفتة إنسانية من شوقى الإنسان .

* * *

الباب الرابع

شوق الإنسان فى الوصف

يختلف الشعراء فى نظرتهم إلى ما يشاهدون ، وتأثرهم بما يقع لهم أو لغيرهم كما يختلفون فى وسائل التعبير اللفظى والمعنوى . بل إن منهم من لايترك حدثا من الأحداث على نفسه إلا بقدر ما تتركه فراشة على براعم الأزهار . حيث تكون أذهانهم شاردة فى آفاق أخرى بعيدة عما يشاهدون . فيصرفهم هذا الانشغال عما يمر بهم أو يمرون به ، وكل فى فلك يسبحون .

والشاعر الإنسان شوق ، تخترق بصيرته الحجب ، وتغوص إلى أعماق الأحداث لتصل إلى أسبابها وتربط مظهرها ومخبرها ، ولا تترك شاردة أو واردة إلا وأضفت عليها من شاعريتها ما يظهرها فى ثوب باهر اللألاء رقيق الحواشى ، فريد المعنى والمبنى .

بل إن شعر المناسبات الذى يعيب النقاد على ناظميه انصرافهم إليه ، لا يخلو من طرافة ورونق وطلاوة ومرح يقتلع الهم ويثير البهجة والأنس . فقد مدح المتنبى أميراً يدعى النجدى المتوكل ، فأهداه هذا الممدوح فرساً

توفيت فى اليوم التالى لإهدائها ، مما دعا المتنبى إلى أن يقول فيها موجهاً الخطاب للأمير :

أهـديـتنى أعـجوبـة هى فى العجائب نادره
فـرس كـأن هبوبه وشك الرياح الطائره
فى ليلة قطع المسافة من هـنـا للآخـره

* * *

وقد يمر شاعر فوق جسر البوسفور (جلطه) الذى يربط بين إستانبول القديمة وإستانبول الحديثة ، فلا يثير شعوره وخياله سوى فزع مؤقت من اهتزاز الكوبرى من فرط قدمه وتركه بلا إصلاح ، ثم يمضى إلى حال سبيله . وقد سبقت الإشارة إلى هذه القصيدة ولكننا هنا نذكرها بكل ملابساتها .

فالشاعر شوقى ، قد تجسدت أمام عينيه ، وملأت مشاعره أحاسيس ورؤى ألهمته قصيدة (جسر البوسفور) التى حوت فوق التهكم الطريف ، غمزة إلى ما وصل إليه الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) من سلطة وصولة صرفته عن أن يأمر بإصلاحات تبقى على هذا الجسر الوحيد الذى يربط بين إستانبول القديمة والحديثة ، كما يغمز فى قصيدته إلى ما بلغه السلطان عبد الحميد من قلة حيلة ، مثلما مر على المعتمد فى آخر أيام الدولة العباسية ، بعد أن استشرى سلطان المماليك حتى دعاه ذلك إلى أن يقول :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه

والمعتمد هو أبو المعتضد الذى تزوج من قطر الندى ابنه خمارويه سلطان مصر. فأراد شوقى فى لماحية تعز على سواه ، أن يأتى فى ختام قصيدته عن الجسر ، بهذين البيتين على لسان المعتمد ، وكأنهما يصفان حال الخليفة عبد الحميد فى نهاية حكمه الذى شاع فى أرجاء إمبراطوريته الفساد والتفكك ، نتيجة توزع السلطة بين معاونيه وتنافسهم وإصغائه لمستشارى السوء من حوله .

وقد اهتم السلطان عبد الحميد بهذه القصيدة ، وطلبها وقرأها باهتمام .

وفيها يقول شوقى :

أمير المؤمنين رأيت جسراً ... أمر على الصراط . ولا عليه
له خشب يجوع السوس فيه ... وتمضى الفأر لا تأوى إليه
ولا يتكلف المنشار فيه ... سوى مر الفطيم بساعديه
وكم قد جاهد الحيوان فيه ... وخلف فى الهزيمة حافريه
وأسمج منه فى عينى (جباة) ... تراهم وسطه وبجانبيه
إذا لاقيت واحدهم تصدى ... كعفريت يشير براحتيه
ويمشى (الصدر) فيه كل يوم ... بموكبه السنى وحارسيه
ولكن لا يمر عليه إلا ... كما مرت يداه بعارضيه
ومن عجب هو الجسر المعلى ... على البوسفور يجمع شاطئيه
يفيد حكومة السلطان مالا ... ويعطيها الغنى من معدنيه
يجود العابرون عليه هذا ... بعشرته وذاك بعشرتيه
وغاية أمره أنا سمعنا ... لسان الحال ينشدنا لديه

« أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعاً عليه »
« وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه »

* * *

ولعلكم تنظرون معى إلى مواقف شوقى من الأحداث الجارية ، ومبلغ همه واهتمامه بتسجيلها ووصف مبعثها وأثرها وخطر أمرها . إنه يصدر فى ذلك عن طبيعته الإنسانية ، وعن حدبه على كل أثر وذى أثر تكون يده هى الممدودة للأخذ بما يصلح أمره ويشيد بذكره وخيره .

كانت مصر ترزح منذ الاحتلال البريطانى والحماية التى فرضتها عام ١٩١٤ تحت وطأة الاستعمار العسكرى والاقتصادى .

وحدث أن قام فتية أحرار عزهم أن يروا وطنهم قد أحاطت به كل هذه المهانات والإذلال ، وشرعوا همتهم واستلوها من غمدها ، وتنادوا بإسقاط التواكل عن نفوسهم وتقدموا بمشروع مدروس مجهز للتنفيذ ، يستهدف إنشاء بنك مصر وما يستتبعه من شركات تستثمر أموال المصريين ويكون خيرها لبلدهم ولهم لا للغريب المستعمر .

وكان فى طليعة هؤلاء الوطنيين الأباة ، المغفور له طلعت حرب باشا الذى بنى مع أعوانه اقتصاد مصر الذى كان هو الدعامة للاستقلال والدعوة إلى التحرر ، وانتشرت شركات بنك مصر حتى بلغت العشرات ، وأغنت مصر والمصريين عن الاعتماد على مصنوعات الغرب .

هذه الوقفة من شوقى واكبت هذا العزم الحديد ، وأقيم فى دار الأوبرا حفل لهذه المناسبة ، ألقيت فيه قصيدة شوقى (بنك مصر) ، التى وصف فيها

ما كانت وما زالت تؤديه هذه المؤسسة من خير عم الوادى وأتى ثماره .

قف بالممالك وانظر دولة المال   واذكر رجالا أدالوها بإجمال
وانقل ركاب القوافى فى جوانبها   لا فى جوانب رسم المنزل البالى

ثم يمضى ليقول :

شراة مصر عهدنا كم إذا بسطت   يد الدعاء سراعاً غير بخال
هانوا الرجال وهانوا المال واحتشدوا   رأيا لرأى ومثقالاً لمثقال
هذا هو الحجر الدرى بينكمو   فابنوا بناء قريش بيتها العالى
دار إذا نزلت فيه ودائعكم   أودعتم الحب أرضاً ذات إغلال
آمال مصر إليها طالما طمحت   هل تبخلون على مصر بآمال ؟
فابنوا على بركات الله واغتنموا   ما هيأ الله من حظ وإقبال

* * *

وليس أبلغ من شعر تثيره فى النفس ذكريات حب لوطن حمل له فى قلبه وجوانحه ما لم يحمله له شاعر من قبل ، لقد عاب ناقدو شوقى عليه أنه موزع الانتماء ، فهو من أصل تركى جركسى يونانى عربى الموطن ، ولكنه ولد وولد أهله وأبناؤه على أرض هذا الوطن الذى أحبه حباً تلحظونه منبثًّا فى معظم قصائد شعره ، إنه يسجل كل ما يحدث لهذا البلد من أحداث يقف إلى جانبها محذراً حيناً وناصحاً حيناً ، وفرحاً بما نال من عز أو آسياً إذا ما أصابه جرح يكون هو من أكثر المتألمين له النائحين من وقع ألمه على نفسه ومشاعره .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى ، وكان هو فى خدمة الخديو عباس

وشاعره ، رأت السلطة البريطانية المتحكمة آنذاك فى أقدار مصر ، أن تبعده عنها ، لأن هذه السلطة تعلم أن قصيدة من شعر شوقى تفعل أكثر مما تفعل القنابل والرصاص .

وقد قبل وهو يكتم فى نفسه حسرة مأتاها بُعْده عن مألفه وظلاله وخلانه وأخدانه ، ورضخ لأمر القوة ، واختار إسبانيا مكاناً ينفى إليه ، وهو مكان كان للعرب فيه وما تزال آثار تنطق بعزهم ومجدهم التليد . ورحل مع عائلته حتى يقضى الله أمرًا .

واستقر به المقام ، وأخذ الحنين يزحف إلى نفس شاعر ملء جوانحه حس مرهف . عارم الشوق إذا أحب . حارق الأضلاع إذا توله فى حب من أحب . فكيف والشاعر شوق الإنسان الذى تفيض جوانحه بالشوق إلى مصر والحنين إليها .

وهكذا نرى من هذه الملابسات ، كيف نظم أندلسيته ، وكيف كانت مشاعره نحو مصر ونيل مصر وإخوانه فى مصر وظمؤه إلى كل ما تحمله أرض مصر ، والقصيدة تقع فى أكثر من مائة بيت تحس وقدة نفسه فى ثنايا هذا الشعر البالغ الحساسية والحنين :

يا نائح (الطالح)[1] أشباه عوادينا ... نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
ماذا تقص علينا غير أن يداً ... قصت جناحك جالت فى حواشينا
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا ... أخا الغريب وظلا غير نادينا

(١) الطالح داد بظاهر أشبيليه .

فإن يك الجنس يا بن (الطلح) فرقنا ... إن المصائب يجمعن المصابينا

ثم يمضى ليقول :

رسم وقفنا على رسم الوفاء له ... نجيش بالدمع والإجلال يثنينا
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم ... ولا مفارقهم إلا مصلينا[1]
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة ... للناس كانت لهم أخلاقهم دينا
لم نسر من حرم إلا إلى حرم ... كالخمر من (بابل) سارت لدارينا[2]
كادت عيون قوافينا تحركه ... وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا[3]
لكن مصر وإن أغضت على مقة ... عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفت تمائمنا ... وحول حافاتها بها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا ... وأربع أنست فيها أمانينا
بنّا فلم نخل من روح يراوحنا ... من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا ... باسمه ذهبت فى اليم تلقينا[4]
ومصر كالكرم ذى الإحسان : فاكهة ... لحاضرين وأكواب لبادينا

---

(١) يقصد ملوك الأندلس .

(٢) بابل ودارينا : مدينتان اشتهرتا من قديم بجودة الخمر .

(٣) يقصد سلاطين وملوك الأندلس .

(٤) شبه مصر بأم موسى حين ألقته فى اليم صبيًّا وسألت الله أن يكفله .